المرأة

في الجاهلية

بقلم حبيب افندي الزيات الدمشقي

عُفِي عنهُ

طُبعت

برسم مشتركي الضياء

لسنة ١٨٩٨ - ١٨٩٩

وهي هدية السنة

هذه الرسالة لا تباع ولا توجد في المكاتب

مطبعة المعارف باول شارع الفجالة بمصر ٧

المرأة في الجاهلية

كل من عانى البحث في احوال العرب في الجاهلية وتصفح ما دُوّن عنهم في اسفار التاريخ الاسلامية يعلم ما يكتنف تلك الاعصار من الظلمات الطامسة على آثارها المودية بكثير من صحيح اخبارها بحيث كان هذا اليسير المنقول منها لا يسدّ حاجةً ولا يشفي غلةً فضلاً عما يتنازعهُ من الاقوال المتناقضة والروايات المتضاربة التي لا يصح معها رأي ولا يتّجه بها حكم وفضلاً عن كون اكثر هذه الروايات وارداً مورد الاقاصيص والخرافات مما لا يتضح بهِ بحث ولا يبنى على مثلهِ علم . ولذلك لم يكن بدٌّ للناظر في هذا الصدر من تاريخ العرب المستزيد بياناً لاحوالهم وتفصيلاً لوجوه معيشتهم المتشوّف الى الوقوف على كنه اخلاقهم واستطلاع طِلع عوائدهم من اعادة النظر في ما جآء عنهم لذلك العهد والتنقيب عن تمتهِ في تضاعيف الاخبار وغضون الاحاديث التي لا يكاد يخلو منها مصنّف في اللغة او مؤلّف في الادب والاستعانة على تحقيق موضع الشاهد فيها من استقرآء دواوين الشعرآء في الجاهلية وبدء الاسلام وهي على عزّتها وتعذر منالها تكاد تكون فيما عدا اللغة والامثال اوحد الآثار التي تمثل تلك الاعصار . ولا يخفى ما يقتضي مثل هذا المطلب الشاق من الجلد الرابط وما يستغرقهُ من الوقت الطويل مما لا يضطلع بهِ الواحد ولا يتسنى بلوغهُ لكل طالب

وانما جآء هذا النقص لاشتغال العرب في القرون الاولى من الاسلام

بجهاد المشركين وفتح الفتوحات وانصراف الرواة منهم عن رواية الاخبار الجاهلية الى استقصاء الاحاديث الاسلامية حتى اذا استقر فيهم الملك ودانت لهم الامصار واخلدوا الى الحضارة كان اول ما دفعتهم اليهِ الحاجة تدوين بعض ما يستعينون بهِ على تفهم السنة والحديث وإِحكام تلاوة القرآن كما يشهد بذلك ما نقل عن اصل وضع فنّي الصرف والنحو . ولذلك كانت اكثر تآليفهم في سائر العلوم لا تتجاوز في بدء امرها حد الكفاية ولا تتعدى الغرض الذي دعاهم الى وضعها لأنفتهم من انتحال غير العلوم الدينية واطّراحهم كل ما عداها مما لا يرجع اليها او لا يعين عليها نظراً لقرب عهدهم بالبداوة واشتغالهم بتولي الرئاسة وتقلد الاعمال السلطانية حتى كان اكثر حملة العلم بينهم من العجم كما نبّه على ذلك ابن خلدون في مقدمتهِ

ولهذه الاسباب لم اطمع حين أقبلت على البحث عن حالة الانثى في الجاهلية ان أفي هذا الموضوع حقهُ ولا ان أحيط بالمسئلة من جميع اطرافها لغياب ما يمثل تلك الحالة بتمامها لا سيما وان الكلام فيها نسجٌ على غير منوال وطبعٌ على غير مثال اذ لا اعلم فيما بلغني ان قد سبق لاحد من اهل اللسان العربي كلام في هذا الصدد او استقصاء في البحث عنهُ ولذلك اضطررت ان ارجع في كثير مما ذكرتهُ الى ابيات من الشعر اصبتها بعد طويل الجهد متفرقة في اقوال شتى لشعراء مختلفين اوردتها شواهد بما وصفتهُ جرياً على المشترط في اصول البحث من الاحتجاج لكل قول بما يثبت صحتهُ وينفي عنهُ شبهة الوضع . ولم اقتصر منها على ما كان جاهلياً بحتاً بل نقلت احياناً من شعر المخضرمين واهل الطبقة الاولى من المحدثين ما اصبت

الشاهد فيهِ اذ كانت الاخلاق والعوائد لذلك العهد لم تحل بعد بتمامها عما كانت عليهِ في الجاهلية الا ما نسخهُ الشرع او حظرهُ الدين

ولست ادّعي بذلك انما حكيتهُ هو تمثيل الواقع واصابة السداد فرُبَّ رأيٍ تخيل لي انهُ هو الراجح والارجح غيرهُ وانما حكمت بحسب ما ثبت لي من الظاهر ودلتني عليهِ القرائن وعلى قدر ما اجتمع عندي من الشواهد التي حصلتها مما تهيأ لي مطالعتهُ من المصنفات التي تكاد تنحصر في شرح الحماسة للتبريزي وجزء من العقد الفريد لابن عبد ربهِ وبعض صفحات من كتاب الاغاني للاصبهاني ٠ولا ريب انهُ اذا تسنى لاحد من ذوي الخبرة والاطّلاع استكمال مثل هذه المطالعات واستقرآء اشباه هذه الشواهد في مظانها يظفر منها بما يكون حكاية الصحيح وفصل الخطاب وينجلي البحث بعدها بما لا يذكر معهُ ما اشتملت عليهِ هذه العجالة القاصرة

وقد قسمت الكلام عن حالة الانثى الى قسمين وصفت في الاول حياتها المادية وفي الثاني حياتها الادبية مقتصراً في كلٍّ منهما على ما قل ودل ميلاً مع الفائدة واكتفآء بالشاهد الواحد في مقام الاحتجاج

القسم الاول

معلوم ان العرب في جاهليتهم كانوا اكثرهم اهل بادية معاشهم من القيام على الابل يغتذون بالبانها ويقتاتون بلحومها ويكتسون باوبارها ويتخذونها ركائب يقطعون عليها مجاهل القفار فكانت لذلك مخصَّصة عندهم بمزيد العناية يتخيرون لها اطيب الارض بقعةً واكثرها عشباً ويتبعون

لاجلها مواقع الغيث على حسب اختلاف الفصول فلا يزالون دهرهم في حلّ وترحال يطوفون الآفاق طلباً للمرعى وارتياداً للماء . غير انهم كثيراً ما كانوا يصابون بالقحط ويحتبس عنهم المطر فيهلكون هم ومواشيهم جوعاً او تدفعهم الحاجة او الطمع الى الاغارة على من جاورهم فيقطعون السابلة ويغزو بعضهم بعضاً فينهبون ويسبون وربما أصاب احدهم الفتاة العذراء او المتزوجة أمّ البنين فيحسبها غنيمةً باردة كسبها برمحهِ ويختصها لنفسهِ دون تحرُّج ولا تورُّع وربما سُبيت منهُ فيغتصبها غيرهُ فلا تزال تنتقل من مالك الى آخر الى ان يتيسر لاهلها استرجاعها فتعود الى منزلها الاول وقد لزمها من العار ما يبقى سبةً لذويها مدى الدهر

وقد كانت السبيّة لمعرفتها بمقدار الذل الذي يلحقها من امتلاكها بالسبي وأنفتها من تعيير اهل مولاها ودعائهم اياها بالامة تتحين الفرص لمفارقتهِ وتعمل على الفرار من يديهِ لا يثبطها عن ذلك طول صحبتها اياهُ مع احسانهِ اليها ولا يثني من عزمها ما يصلها بهِ من علاقة الولد كما ذكر ابو عمرو الشيباني عن سلمى امرأة عروة بن الورد وقد كان اصابها بكراً من بني كنانة واعتقها وتزوجها واتخذها لنفسهِ فمكثت عندهُ بضع عشرة سنةً وولدت لهُ اولاداً وهو لا يشك انها ارغب الناس فيهِ وهي تقول لهُ لو حججت بي فامرّ على اهلي واراهم فحج بها ثم اتى المدينة فلما همّ ان يعود بها قالت سلمى لقومها تعالوا اليهِ واخبروهُ انكم تستحيون ان تكون امرأة منكم معروفة النسب صحيحتهُ سبيةً وافتدوني منهُ فانهُ لا يرى اني افارقهُ فاتوهُ وسقوهُ الشراب فلما ثمل قالوا لهُ فادِنا بصاحبتنا فانها وسيطة النسب فينا معروفة وان علينا

سبةً ان تكون سيةً فاذا صارت الينا وأردت معاودتها فاخطبها الينا . فامتنع ثم اشترط عليهم ان يخيروها فاختارت اهلها ثم اقبلت عليهِ فقالت يا عروة أمَا اني اقول فيك وان فارقتك الحق والله ما اعلم امرأةً من العرب ألقت سترها على بعلٍ خيرٍ منك وأغضّ طرفاً واقل فحشاً واجود يداً واحمى لحقيقةٍ وما مر عليَّ يوم منذ كنت عندك الا والموت فيهِ احب اليَّ من الحياة بين قومك لاني لم اكن اشآء ان اسمع امرأة من قومك تقول قالت أمة عروة كذا وكذا الا سمعتهُ ووالله لا انظر في وجه غطفانية ابداً فارجع الى ولدك راشداً واحسن اليهم . فقال عروة في ذلك ابياتاً ذكرها صاحب الاغاني

ولهذين السببين اي خوف العار وخوف الفقر كان بعض العرب يئدون بناتهم لا يفعل ذلك منهم عابد الوثن فقط بل المتنصر احياناً كما نُقل عن عدي بن ربيعة المعروف بالمهلهل زير النسآء انهُ لما وُلدت لهُ ابنتهُ ليلى امر بدفنها ثم بدا لهُ فاستحياها . وذكر عن قيس بن عاصم انهُ وأد بيدهِ بضع عشرة ابنةً لهُ قال وما رحمت منهنَّ الا واحدة ولدتها امها وانا في سفر ودفعتها الى اخوالها فلما قدمت وسألت عن الحمل اخبرت انها ولدت ميتاً ومضت سنون حتى ترعرعت فزارت امها ذات يوم فدخلت فرأيتها قد ضفرت لها شعرها وزينتها والبستها الحلى فقلت من هذه الصبية فقد اعجبني حسنها فبكت وقالت هذه ابنتك فامسكت عنها حتى اشتغلت امها فاخرجتها وحفرت حفرة وجعلتها فيها وهي تقول يا أبتِ اتغطيني بالتراب حتى واريتها وانقطع صوتها . واستمر الوأد جارياً عند العرب الى ان قام زيد بن عمرو النصراني فجعل ينهى عنهُ وتبعهُ صعصعة بن ناجية جد الفرذدق فاخذ

يطوف في القبائل يشتري الموءودة بناقتين وجمل يشتري حياتها لا رقّها وظل كذلك الى ان جاء الاسلام وقد فدى ثلاث مئة موءودة . وقد افتخر بفعلهِ هذا الفرزدق فعدهُ في شعرهِ من جملة مآثر آبآئهِ فقال

وجدي الذي منع الوائداتِ واحيا الوئيد فلم يوأدِ

ونظراً لتأصل هذه العادة القبيحة في نفوسهم وتعارفهم بها كان الوالد اذا ادركتهُ الشفقة على ابنتهِ واحب استحياءها يجهد باخفآئها من الناس لئلا يفطن لها احد مثلما فعل عصيم بن مروان بابنتهِ نضيرة ام حصن بن حُذَيفة فيما حكاهُ ابو محمد الاعرابي ولم يكن لهُ ولد غيرها فلما وُلدت لهُ ورآها انتشرت نفسهُ عليها ورق لها وقال لامها استرضعيها واخفيها من الناس

ومع ذلك فلم يكن العرب باسرهم على هذا المنوال يئدون بناتهم فان عدداً منهم ليس بالقليل كانوا يستحيونهنّ غير انهم كلهم قاطبةً كانوا يكرهونهنّ ويرون ولادتهنّ مصيبةً عليهم انفةً من العار الذي قد يلزم عنهنّ وهرباً من مؤونة تربيتهنّ . وقد سئل احدهم عن ولدهِ فقيل لهُ كم ولدك فقال قليل خبيث فقيل لهُ كيف قال لا اقل من واحد ولا اخبث من انثى . وقال آخر في ابنةٍ لهُ كانت تبالغ في برّهِ واكرامهِ

تهوى حياتي واهوى موتها ابداً والموت اكرم نزّالٍ على الحُرَمِ

وقد توارث هذه الكراهة الخلف عن السلف حتى انهُ لما اراد بعض الاسلاميين ان يهنئ بعض الوزرآء قديماً بابنةٍ وُلدت لهُ احتاج ان يذكر تسليةً لهُ ما في السماء والارض وما بينهما من الاناث وهذا نص كتابهِ أوردهُ تفكهةً ليعلم منهُ كم كانت الانثى مُبغَضةً الى والديها قال

اهلاً وسهلاً بعقيلة النسآء . وام الابناء . وجالبة الاصهار . والاولاد الاطهار . المبشرة باخوة يتسابقون . ونجباء يتلاحقون

ولوكان النسآء كمثل هذي لفُضلت النسآء على الرجالِ
فماالتأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلالِ

والله يعرّفك البركة في مطلعها . والسعادة بموقعها . فادّرع اغتباطاً . واستأنف نشاطاً . فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها . والذكور يعبدونها . والارض مؤنثة ومنها خلقت البرية . وفيها كثرت الذرية . والسمآء مؤنثة وقد زُينت بالكواكب . وحليت بالنجوم الثواقب . والنفس مؤنثة وهي قوام الابدان . وملاك الحيوان . والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الاجسام . ولا تحرك الانام . والجنة مؤنثة وبها وُعد المتقون . وفيها تنعم المرسلون . الى آخر ما هنالك مما هو بالتعزية اشبه منهُ بالتهنئة . واما التهنئة الصحيحة فانما كانت تكون عندهم اذا توفيت الانثى واقل ما كانوا يكتبونهُ في التهنئة بوفاتها قولهم ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكرمات وتقديم الحُرَم من النعم وغير ذلك مما لا استقصي في ذكرهِ -

على ان بعض العرب كانوا في عكس من سبق يحبون بناتهنّ ويبذلون في اكرامهنّ غاية جهدهم دون ان يمنعهم ما كانوا يتقونهُ منهنّ من الفضيحة وتقل المؤونة عن توفيتهنّ حقهنّ من العناية والتربية بحيث كانوا يجزعون لاقل اذًى يحل بهنّ . قال حطّان بن المعلّى

لولا بنيّاتٌ كزغب القطا رُددنَ من بعضٍ الى بعضِ
لكان لي مضطرَبٌ واسعٌ في الارض ذات الطول والعرضِ

وانما اولادنا بيننا اكبادنا تمشي على الارضِ

لو هبَّت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمضِ

وقد بقيت آثار ذلك كلهِ الى اليوم كما هو مشهور في هذه الاقطار

وقد نقبت كثيراً في ما بين يديَّ لاجد ما أصف بهِ حالة الانثى في بيتها اذا ترعرعت وما كان يستغرق وقتها من اشغال المنزل ومهمات تدبيرهِ فلم اظفر من ذلك بالبلاغ فان البيت كلهُ كان في الغالب قائماً في طراف او خباء يتولين فيهِ الردن اي الغزل ومنهُ اشتقاق رُدَينة من اسمائهنَّ او ينسجنَ الصوف والوبر والشعر ونحوهُ وقد يدبغنَ الاديم ويرملنَ الحصير قال الوليد بن عقبة

فانك والكتاب الى عليٍّ كدابغةٍ وقد حلم الاديمُ

وقال النابغة

كأن مجرّ الرامسات ذيولها عليهِ حصيرٌ نمقتهُ الصوانعُ

ومهمات المنزل باسرهِ منحصرة في تهيئة الطعام في ما لا يكاد يخرج عن اللبن الحليب والأَقِط والتمر والدقيق والعسل والزبد والسمن والزيت والشحم شأن سائر سكان القفار الباقين على نشأتهم الطبيعية . ولذلك اذا راجعنا مآكل العرب وحلوياتهم لم نرَها تتعدى هذه الاشياء تُفرَد او تُخلَط بعضها ببعض واما اللحم فغاية احضارهِ ان يشوى على الجمر او على الحصى او يدفن في الرماد او يكون جيد النضج بالغهُ او قليلهُ مما يرجع الى حالة واحدة ولا يتطلب كبير عناء . ولذلك كان بعض النساء يخرجنَ راعيات يقضينَ يومهنَّ في القيام على الابل او الشياه وبعضهنّ بائعات كما نُقل عن ذات النحيين

في المثل المشهور . واكثر ما كنَّ يبعنَ العسل والسمن والتمر والعطر يطفنَ بهِ الاحياء يستبدلنهُ احياناً بالشحم او يلزمن بهِ مكانهنّ فيأتيهنّ الرجال يتطيبون بهِ لديهنَّ كما جاء في المثل عن منشم في احد الاقوال . وربما تعرضنَ للركبان بالأُدُم والبُرَم اي الجلود والقدور قال النابغة ايضاً

ليست من السوداعقاباً اذا انصرفت ولا تبيع بجنبي نخلةَ البُرَما

وبعد ذلك

كادت تساقطني رحلي وميثرتي بذي المجاز ولم تُحسِس بهِ نغما

من قول حرميةٍ قالت وقد ظعنوا هل في مُخفيكمُ من يشتري أُدما

ولا يبعد ان يكون هنالك صنائع أُخرى كن يتعاطينها مما لا يكاد يتعدى حاجة ساكن القفر مثلما جاء عن رُدينة انها كانت في خط هجر هي وزوجها سمهر يقوّمان الرماح ولذلك نسبت الرماح اليهما فقيل رمح رديني ورمح سمهري

ويلحق بهذا ما كان يتعاطاهُ بعضهنّ من فنون الكهانة كالضرب بالحصى مما يشاهد مثلهُ في بدويات اليوم وكزجر الطير او العيافة وهي ان ترمي الطائر بحصاة او ان تصيح بهِ فان طار عن اليمين استسعدت بهِ وان طار عن اليسار تشاءمت بهِ تسمي العرب الاول سانحاً والثاني بارحاً وكانوا يعتقدون بصحة هذه الخرافات وقل من انكرها منهم كابيد حيث يقول

لعمركَ ماتدري الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ

وكنَّ فيما عدا التنجيم يتكلفنَ الرقي والنفث في العقد من فنون السحر وهو ان يعقدنَ عُقَداً في خيوط او في وتر وينفثنَ عليها اي ينفخنَ مع ريقٍ وقد

استعاذ منهن القرآن فقال قل اعوذ برب الفلق من شرّ النفاثات في العُقَد

على ان كثيراً من هذا الذي تقدم كان تقوم بهِ الولائد والاماء من الرقيق وهن وقتئذٍ يُعددن بالالوف فكنّ يُستخدَمنَ في عامة حاجات المعيشة من رعي الابل خاصةً وخدمة المنزل وتعاطي المهن وسائر ما تتطلبهُ لوازم الحياة في القفر مما كانت تترفع عنهُ حرائر النسآء او يأنفن من مزاولتهِ لما يترتب عليهِ عندهنّ من العار والغضاضة في الشرف . قال التبريزي في شرح قول قيس بن الخطيم

يهون عليّ ان تردّ جراحها عيونَ الأَواسي اذ حمدت بلآءها

« الأَواسي المداويات للجراح وانما ذكر النسآء لانهم يأنفون من الصناعات ويعلمونها العبيد والاماء وحرائر النسآء اذا لم يكنّ في غاية بعيدة من الشرف » . ولذلك قال النابغة في البيت المتقدم ولا تبيع بجنَبي نخلةَ البُرَما

وقال ذو الاصبع العدواني

عني اليك فما امي براعيةٍ ترعى المخاض ولا رأيي بمغبونِ

ومن اظهر الدلائل على هذه الانفة من الامتهان والتبذل قولهم في المثل تجوع الحرة ولا تأكل بثديها

ومما يلحق بذلك الغنآء فانهُ في الجاهلية كان من خصائص الاماء وتسمى عندهم الامة المغنية بالقينة والكرينة واول من غنّى من الاماء فيما زعموا جاريتان كانتا لمعاوية بن بكر من قبيلة عاد الهالكة وهما المدعوتان في الاخبار بالجرادتين

ولا يبعد ايضاً ان تكون الامة هي التي كانت تتولى خياطة الثياب

واصلاحها بنفسها او تسعفها في ذلك مولاتها اذا كان المخيط لها او لأسرتها او لم تكن عريقة في الشرف . وكانت النسآء لذلك العهد او بعضهنَّ يحتفلنَ بملابسهنَّ ولا يقتصرنَ على لبس القطن والصوف والوبر بل يتشحنَ احياناً بالديباج والحرير حسب يسارهنّ . قال المنخل اليشكري

الكاعب الحسناء ترفل م في الدمقس وفي الحريرِ

واقل من ذلك لبسهنَّ الثياب الموشاة بالذهب قال سامى بن ربيعة

والبيض يرفلنَ كالدمى في الرَيط والمذهب المصونِ

يعني بالبيض النسآء يتبخترن في الريط وهي الملآء الواسعة . والمذهب المصون يراد بهِ الثياب الفاخرة المطرزة بالذهب . على انهنّ كنَّ في اوقات الخلوة يقتصرنَ على لبس الصدار والمجول والإتب تحت دروعهنّ وهي كما ذكرهُ الثعالبي قُمُصٌ متقاربة الكيفية في القصر واللطافة وعدم الاكمام . ولا بد ان ذلك كان عاماً لهنَّ حتى قيل في المثل كل ذات صدار خالة

واما الزيّ الذي كنَّ يتخذنهُ في ملابسهنّ فالظاهر انهُ كان لا يخلو من بعض التأنق . ومن اغرب الشواهد الدالة على مبلغهِ عندهنَّ هذه الوسادة التي تضعها نسآء الفرنجة ونسآؤنا تحت اثوابهنَّ في اسفل الحصور لتعظيم ما خلف الظهور فانها ليست من ايجاد مخترعات الزي في اوربا بل هي من معلومات نسآء العرب في سالف الدهر وتسمى عندهن بالعُظّامة والحشيّة والرِفاعة . واذا قرأنا في تفسيرها قول ارباب اللغة العظّامة ثوب كالوسادة تعظّم بهِ المرأة عجيزتها علمنا انها هي هي ما نراهُ اليوم في زيّ المرأة المتمدنة . ومن ذلك ايضاً عادة اطالة الذيول وجرها تبختراً وخيلآء واشعار

العرب طافحة بذكرها فلا حاجة الى النص عليها في بيت بعينه

واشد من اهتمامهنَّ بالملبس حرصهنَّ على التحلي و بلغ من شغفهنَّ بهِ انهنَّ لم يقتصرنَ على الحلي الواحد في الموضع الخاص بهِ بل ربما عدّدنهُ في كل قسم منهُ كاليد مثلاً فانهنَّ في ما عدا الخواتم في الاصابع اتخذنَ فيها للمعصم سواراً وللساعد جبيرةً وللعضد دماجاً . وكالرجل فقد ذكر الثعالبي فضلاً عن الخلخال والخدَمة لها الفَتَخ لاصابعها وقال تلبسها نساء العرب وكذلك الاذن فقد جاء الشنف لما يعلق في اعلاها والقرط لاسفلها. ويظهر ان السوار لم تكن تلبسهُ الا الحرائر من النساء دون الاماء بدليل قول حاتم الطآئي لما لطمتهُ العنزية حين فصد لها البعير لو ذات سوار لطمتني

ومن لوازم التحلي ولواحقهِ التزين والتبرج في ما يتداولهُ من التطيب والاختضاب والوشم وترجيل الشعر وتزجيج الحواجب والتكحل وما اشبه. واكثر ما كان الوشم في ظاهر الكف والمعصم يدل على هذا الثاني قول زهير في معلقتهِ

ودارٌ لها بالرقمتين كانها مراجيع وشمٍ في نواشر معصمِ

وربما وشمت الحمقآء غير ذلك ليكون احسن لها كما ذكروا في تفسير المثل هو اعظم في نفسهِ من المتَّشمة . واما الشعر فيستفاد من وصف امرئ القيس للفرع في معلقتهِ المشهورة انهنَّ كنَّ اذا اردنَ ترجيلهُ تفننَّ في ضفرهِ وتهيئتهِ وخالفنَ فيهِ بين تثنيةٍ وارسال وهو قولهُ

غدائرهُ مستشزراتٌ الى العُلى تضل العقاص في مثنًّى ومرسلِ

ونظراً لما يترتب على الفرع الطويل من الحسن كنَّ اذا قصر شعر احداهنَّ

تصلهُ بغيرهِ ليكون اتم لها وتسمى من كانت كذلك بالواصلة والطالبة لهُ بالمستوصلة . وقد لعنها كلتيهما الرسول كما لعن الواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة . ومعنى النامصة الناتفة لشعرها كما تفعل بعض النسآء اليوم ومنهُ قول الراجز

يا ليتها قد لبست وصواصا ونمَّصت حاجبها تنماصا

اراد بتنماص الحاجب نتف مانبت فيه ورآءَ القوس من الشعر وكانت العرب تحب الحواجب المزججة اي المدققة المطولة . واما صبغها المعروف بالخطوط فلم تكنْ تعرفهُ البدويات وانما هو من تبرج الحضَريات كما قال ابو الطيب

افدي ظبآءَ فلاةٍ ما عرفنَ بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيبِ

ولا حاجة الى التنبيه على ان هذا الذي تقدم من حرص المرأة على التزين والتحلي كان يُشاهد في غير المرأة الثاكل او الفاقد فان حداد هذه كان يشغلها عن كل زهو وتبرج ولذلك عرَّفوا الحداد بكونهِ خاصةً ترك الزينة والخضاب وان كان في الواقع يتناول غير ذلك كلبس السُلُب السود وهي ثياب المأتم والمسوح كما قال لبيد

يخمشن حُرَّ أوجهٍ صحاحِ في السُلُب السود وفي الأَمساحِ

وقد تعصب الحادُّ رأسها ايضاً بالسلاب كما يدل عليهِ قول ضمرة بن ضمرة النهشلي

هل تخمشنْ ابلي عليَّ وجوهها ام تعصبنَّ رؤوسها بسلابِ

بل ربما تناول الحداد ما هو اشد من ترك الزينة كحلق الشعر وتعليق النعلين احياناً كما ذكر عن الخنسآء انها رؤيت بعد مقتل اخيها صخر تطوف بالبيت

محلوقة الرأس وهي تبكي وتلطم خدها وقد علقت نعل صخر في خمارها . فلما عوتبت على ذلك ونُهيت عنهُ قالت ابياتاً منها

ولكني رأيت الصبر خيراً   من النعلين والرأس الحليقِ

قال المبرّد وتأويل النعلين ان المرأة كانت اذا أصيبت بحميم لها جعلت في يديها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها . قال عبد مناف بن ربع الهذلي

ماذا يَغير ابنتي ربعٍ عويلهما   لا ترقدان ولا بؤسى لمن رقدا

اذا تجاوب نوحٌ قامتا معهُ   ضرباً اليماً بسِبتٍ يلعَج الجِلدا

وقصرُهُ الاصابة على الحميم فقط يدل على انهُ اذا لم يكن المصاب بهِ كذلك ندبتهُ المرأة بغير نعلين واستعاضت عنهما بخرقة تمسكها بيدها وهي تنوح كما تصنع النوادب اليوم . وتسمى هذه الخرقة بالمئلاة قال الشاعر يصف سحاباً

كأن مصفحاتٍ في ذراهُ   وانواحاً عليهنّ المآلي

ومما اشتهر عنهنّ البروز عند سماع النعيّ حاسرات بغير نقاب كما سيجيء وخمش الوجه وقد تقدم شاهدهُ وشق الجيب كما قال طرفة

وان متُّ فانعيني بما انا اهلهُ   وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبدِ

واقل منهُ تخريق الخمار كما قال صخر في اختهِ الخنساء

والله لا امنحها شرارها   وهي حَصانٌ قد كفتني عارها

وان هلكتُ خرّقت خمارها   واتخذت من شعرها صدارها

واما مدة الحداد فلا يبعد انها كانت تختلف باختلاف منزلة الفقيد او نسبهِ وقد جعلها لبيد حولاً كاملاً حيث قال يخاطب ابنتيهِ بعد ان نهاهما عن خمش الوجه وحلق الشعر

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر

ومما يتصل بالملبس التقنع والتنقب وقد كان النقاب يستر الوجه الى قصبة الانف او الى المحجر فقط بحيث كانت تُرى منهُ العين . ولعلهُ لم يكن في بدء الامر الا فضلة القناع تردّها المرأة على شفتها كما يردّ الرجل فضل عمامتهِ على فمهِ بدليل اطلاق لفظ اللثام على كلا الردّين . ثم ما لبث اللثام ان ارتفع الى ما فوق الفم فكان لفاماً ثم انتهى الى الانف فغشيهُ او بعضهُ فكان نقاباً وربما ضاق ايضاً حتى لا تبدو منهُ الا العين فقط وهو البرقع والوصواص . قال المثقب العبدي

ظهرن بكلةٍ وسدلنَ اخرى وثقّبنَ الوصاوص للعيونِ

وذكر ابو زيد في كتاب النوادر انهُ قيل لاعرابي ما تقول في نسآء بني فلان فقال بُرْقِعْ وانظر يريد حسن اعينهنّ

ومن هذا الترتيب يستدل على ان النقاب كان في اول اتخاذهِ كاللثام للرجال ثم لما جعل ارباب الهوى لا يرون حسناآء الا تعشقوها ونظموا فيها الابيات السائرة تحرز منهم النسآء بالنقاب ستراً لمحاسنهنّ ان يبتذلها الوصف فاصبح لذلك التنقب عادةً اوجبها التعفف والتصون . يشهد بذلك ما ذكر عن المتجردة امرأة النعمان ملك الحيرة حين سقط يوماً نصيفها اي خمارها فابصرها النابغة الشاعر فبادرت واستترت بيدها وذراعها فكادت ذراعها تستر وجهها لامتلآئها وغلظها . فما لبث النابغة بعد هذه اللمحة اليسيرة ان نظم قصيدتهُ الدالية وصف فيها المتجردة وصفاً نبّه فيهِ على اكثر محاسنها حتى تجاوز الى رضابها فقال فيهِ ما اوجب غضب النعمان عليهِ . ولما انتهى

الى امر سقوط النصيف واستتار المتجردة قال

سقط النصيف ولم ترد اسقاطهُ　　فتناولتـهُ واتَّقتنا باليـدِ

ونُقل مثل ذلك عن طرفة لما كان بين يدي عمرو بن هند يشرب وأشرفت اختٌ للملك فرآها طرفة فقال فيها بيتين من الشعر نقمها عليهِ عمرو بن هند وكان من بعض ما بعثهُ على الامر بقتلهِ كما ذكر في قصتهِ

ومما يدل على ان التنقب لذلك العهد كان تصوناً استئثار الحرائر بهِ دون الاماَء حتى كانت الحرة اذا خشيت السبي يوماً وارادت ان تأمن على نفسها تلقي عنها النقاب وتبرز حاسرةً كالأمة ليظن انها هي فلا يتعرض لها. قال التبريزي في شرح قول معدي كرب

وبدت لميس كانها　　قمر السماَء اذا تبدَّى

اي برزت هذه المرأة كاشفةً عن وجهها وانما فعلت كذلك اما للتشبه بالاماَء حتى تأمن السباَء او لما تداخلها من الرعب ومثلهُ

ونسوتكم في الروع بادٍ وجوهها　　يُخلنَ اماَءً والاماَء حرائرُ

على ان التنقب لم يكن عاماً لكل الحرائر على السواَء ملازماً لهنَّ في جميع احوالهنَّ فان بعضهنَّ كنَّ لا ينتقبنَ من الرجل اذا كان غير شجاع تظاهراً بالاحتقار لهُ ان يكون عاجزاً عن حماية الاعراض ومدافعة الاعداَء وقد نقل عن بني الحرث بن كعب خاصةً انهُ اذا كان الرجل منهم جباناً لم تختمر منهُ امرأة ابداً . وكنَّ كلهنَّ جُمَع اذا فاجأهنَّ ما يذهلنَ لهُ من مصيبة او حزن يبرزنَ حاسرات سافرات عن وجوهنَّ يلطمنها باكيات .

قال الربيع بن زياد في مقتل مالك بن زهير

من كان مسروراً بمقتل مالكٍ ... فليأتِ نسوتنا بوجه نهارِ
يجد النسآء حواسراً يندبنهُ ... يلطمنَ اوجههنَّ بالاسحارِ
قد كنَّ يخبأْنَ الوجوه تستراً ... فاليوم حين برزنَ للنظارِ
يضربنَ حرَّ وجوههنَّ على فتىً ... عفّ الشمائل طيب الاخبارِ

وقد وصف المتنبي مثل هذا في بعض نسآء المحدثين فقال

واخرجت الخدور مخبآتٍ ... يضعنَ النِقس امكنة الغوالي
اتتهنَّ المصيبة غافلاتٍ ... فدمع الحزن في دمع الدلالِ

ومثل ذلك كانت تفعل بعض النسآء الحسان فكنّ في اكثر الاوقات يبرزنَ للنظار سافراتٍ عجباً بجمالهنّ ان يستره قبح القناع . وقد عُرف ذلك منهنّ حتى كانت المرأة اذا رؤيت حريصةً على التنقب والتستر حُكم عليها لاول وهلة انها قبيحة المنظر واعتقد فيها انها انما تقنعت لتغرّ الناظر اليها وتوهمهُ جمالها ولذلك قيل في المثل ترك القناع من ترك الخداع . وقد ذكر عمر بن ابي ربيعة عادة النسآء الحسان في ترك التقنع فقال من شعرٍ لهُ

ولما تفاوضنا الحديث واسفرت ... وجوهٌ زهاها الحسن ان تتقنعا

اي استخفّها الحسن ان تستر وجهها بالقناع . قال التبريزي في شرح هذا البيت وهكذا كانت نسآء العرب تفعل اذا كانت جميلة . وقد ذكر مثل ذلك الشماخ وابو النجم من الرُجاز فقال الاول أطارت من الحسن الردآء المحبرا وقال الثاني من كل غرّآء سقوط البرقعِ

وعلى كلٍ فايًّا كان السبب لم تكن النسآء يبرزنَ حاسرات الا وهنَّ حريصات على التعفف حرصهنَّ عليهِ وهنَّ منقبات مستترات كما قال في

مثلهنَّ بعض واصفيهنَّ

برزنَ عفافاً واحتجبنَ تستراً　　وشيب بقول الحق منهنَّ باطلُ
فذو الحلم مرتابٌ وذو الجهل طامعٌ　　وهنَّ عن الفحشآء حِيدٌ نواكلُ
كواسٍ عوارٍ صامتاتٌ نواطقٌ　　بعف الكلام باخلاتٌ بواذلُ

ومن هنا يعلم ان النسآء لم يكنَّ جميعاً يستترن بالنقاب استتاراً لا يكشفنَ فيهِ عن وجوههنَّ البتة بل كان كثيرات منهنَّ يبرزن للرجال ولا سيما الفتيات يراهنَّ الراغب في الزواج فيخطبهنَّ عن معرفة ومرأى لا عن شهادة ورواية • وقد بقي بعض هذه العادة الى ما بعد الاسلام فكان بعض النسآء يبرزنَ للرجال يحدثنهم ويحدثونهنَّ كما ذكر عن سكَينة بنت الحسن وتسمى من كانت كذلك بَرْزة • وبعضهنَّ يجلسنَ لخطّابهنَّ كما صرح بذلك ابن عبد ربهِ في العقد الفريد فيما نقلهُ عن معبد ابن خالد الجدلي انهُ قال خطبت امرأة من بني اسد في زمن زياد وكان النسآء يجلسنَ لخطّابهنَّ فجئت لانظر اليها وكان بيني وبينها رواق فدعت بجفنة من الثريد مكللة باللحم فأتت على آخرها وألقت العظام نقية ثم دعت بقربةٍ صغيرة مملوءة لبناً فشربتهُ حتى اكفأَت القربة على وجهها وقالت ياجارية ارفعي الستر فاذا هي جالسة على جلد اسد واذا شابَّةٌ جميلة فقالت لي ياعبد الله أنا اسدة من بني اسد وعلى جلد اسد وهذا طعامي وشرابي فان احببت ان تتقدم فتقدم وان احببت ان تتأخر فتأخر• فقلت استخير الله في امري وانظر وخرجت ولم اعد • واورد ابن عبد ربهِ حكايات أُخر في مثل هذا المعنى بعضها اصرح في الدلالة لا انقلها لطولها فليطالعها من يشآء

وعلى ذكر الخطبة والزواج فقد يظهر ان بعض فتيات الاعراب كنَّ يتروجنَ في سنٍّ حدثٍ جدا ومما لا يكاد يصدق ما وجدتهُ في رجزٍ لبعض النسآء قالتهُ في ابنتها ردًّا على جارةٍ لها ولدت غلاماً . قالت

وما عليَّ ان تكون جاريه تغسل رأسي وتكون الفاليه
حتى اذا ما بلغت ثمانيه زوَّجتها مروان او معاويه
أَختانَ صدقٍ ومهورٍ غاليه

فانَّ تزوُّج الفتاة في الثامنة من سنها مما ينكرهُ الطبع وتكاد تنكرهُ الطبيعة ولعلهُ انما كان يقع في الظاهر فقط ليُملك امرها ثم لا يُبتنى عليها الا متى ادركت كما نُقل عن الرسول فيما ذكرهُ ابن عبد ربهِ من انهُ تزوَّج عائشة في السادسة من سنها وابتنى عليها في التاسعة

ولا يبعد ان تكون هذه العادة باقيةً الى اليوم في بعض المدن الاسلامية كما يؤخذ مما ذكرهُ نيبهر[1] في كتابهِ في وصف بلاد العرب وهو احد من زارها سنة ١٧٦٣ قال في معرض كلامهِ عن الجمع بين الزوجات « سمعت في فارس ان امرأة وضعت في الثالثة عشرة من سنها . قال وفي هذه البلاد تزوج البنات من التاسعة من اعمارهنَّ » . وذكر ايضاً في الجزء الثاني من كتابهِ هـذا من بعض ما تختلف فيهِ اهل الجبال واهل المدن « ان بنات اليمن يتروجنَ في التاسعة او العاشرة من سنيهنَّ واما بنات الجبال فيندر ان يتروجنَ قبل الخامسة عشرة »

ومهما يكن من مقدار العمر فلم تكن الفتاة تُزوَّج في الغالب الا من

(١) M. Niebuhr. Description de l'Arabie

كان غريباً عنها لا تجمعها بهِ صلة معرفة او صلة نسب . اما صلة المعرفة فلانهم كانوا شديدي الغيرة على اعراض النسآء ان يلحق بهنَّ ما يُعرِّضنَ من اجلهِ للظنة حتى لقد كانوا يمنعون زواج الفتاة لمجرد سلامٍ يسلمهُ عليها الرجل فضلاً عما اذا كان مشتهراً بهواها . قال عبد الشارق بن عبد العزَّى

الا حُيِّيتِ عنا يا رُدَينا نحييها وقد كرمت علينا

اي نسلم عليها وان كان في السلام يأسٌ منها . قال ابو رياش فيما نقلهُ التبريزي في شرح هذا البيت « قيل ان الرجل اذا عُرف بحب امرأة لم يزوجوهُ اياها فاذا سلّم عليها عُرف انهُ يهواها » . وقريبٌ من هذا فيما اظن قول الآخر

وما ليَ من ذنبٍ اليهم علمتهُ سوى انني قد قلت يا سرحةُ اسلمي

نعم فاسلمي ثم اسلمي ثمتَ اسلمي ثلاث تحياتٍ وان لم تكلّمي

واما صلة النسب فلأن العرب كانت تعتقد ان الرجل اذا تزوّج قريبةً لهُ جآء ولدهُ ضاوياً نحيفاً . قال أعرابي

ألا فتىً نال العلى بهمّهِ ليس ابوهُ بابن عم أُمهِ

ترى الرجال تهتدي بأَمّهِ

ولذلك جآء في الحديث اغتربوا لا تُضْوُوا اي تزوَّجوا في الاجنبيات ولا تتزوَّجوا في العمومة

ولكنهم في ضد ذلك كانوا يتزوجون احياناً بنسآء آبآئهم كما ذكر الاصبهاني في آمنة بنت أبان انهُ لما مات عنها أمية بن عبد شمس تزوجها من بعدهِ ابنهُ ابو عمرو قال وكان هذا نكاحاً تنكحهُ الجاهلية فانزل الله تعالى تحريمهُ قال ولا تنكحوا ما نكح آبآؤكم من النسآء الا ما قد سلف انهُ كان

فاحشةً ومقتاً وسآءَ سبيلاً فسمي نكاح المقت

وقد يتوهم كثير من الناس ان النسآء في ذلك العهد كنَّ يتزوجنَ من يختارهُ لهن ذووهنَّ ويُكرَهنَ على الاقتران بمن لا يعرفنهُ او لا يرغبن فيهِ . وهذا وان كان يجري بعضهُ احياناً لا يصح في الاطلاق بل كانت الانثى مخيرةً في الغالب تختار من تشآء وتتزوج من تعرف اذا لم يكن ثمَّ ما يمنع زواجها كما سبق مما يخشى منهُ على طيب الذكر او يبعث تحدُّث الناس . وقد جآء على ذلك شواهد كثيرة اجتزئ منها بما نقلوهُ عن الخنسآء الشاعرة من انها كانت تهنأ بعيراً لها ودريد بن الصمة يراها وهي لا تشعر بهِ فاعجبتهُ فانصرف وانشد ابياتاً منها

ما إن رأيت ولا سمعت بهِ   كاليوم طالي اينقٍ جُرُبِ
متبذلاً تبدو محاسنهُ   يضع الهنآء مواضع النقبِ

فلما اصبح غدا على ابيها فخطبها اليهِ فقال لهُ ابوها مرحباً بك انك الكريم لا يُطعن في حسبهِ والسيد لا يُرَدّ في حاجتهِ ولكن لهذه الفتاة في نفسها ما ليس لغيرها وانا اذكرك لها ثم دخل اليها وقال لها يا خنسآء اتاكِ فارس هوازن وسيد بني جشم يخطبكِ وهو من تعلمين فقالت يا أبتِ أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح ومتزوجةً شيخ بني جشم هامة اليوم او غد . فلم يجبها ابوها بشيء مع رغبتهِ في تزويجها لدريد وخرج اليهِ وقال يا ابا قرة قد امتنعت ولعلها ان تجيب فيما بعد . وسيأتي فيما عدا هذا دليلٌ آخر اكثر صراحةً يعلم منهُ كم كانت الانثى يومئذٍ حرةً في اختيار من تشآء ورفض من تشآء زوجاً لها . وفي هذا الشاهد الذي نقلتهُ عن الخنسآء

شاهدٌ آخر بما تقدم ذكرهُ من ان بعض النسآء كنَّ اذا اردنَ يخرجن حاسرات بلا نقاب ولذلك قال دُرَيد متبذّلاً تبدو محاسنهُ

ومما يزيد في فضل هذه المشيئة التي تركها العرب لفتياتهم في اختيار الزوج ان النسآء في الجاهلية او بعضهنَّ كنَّ يطلّقنَ رجالهنَّ وكان طلاقهنَّ انهنَّ ان كنَّ في بيتٍ من شعر حوّلنَ الخبآء ان كان بابهُ قبَل المشرق حولنهُ قبَل المغرب وان كان بابهُ قبَل اليمن حولنهُ قبَل الشام فاذا رأى ذلك الرجل علم انها قد طلقتهُ فلم يأتها كما حدث لحاتم الطآئي مع امرأتهِ ماوية مثلما هو مذكور في قصتهِ . وقد قيل في حاتم هذا انهُ كان نصرانياً فان صح هذا القول كان في تطليق امرأتهِ لهُ دليل على ان الطلاق كان مشتركاً بين النصارى وعابدي الوثن وهذا الموضع مهم للمشتغل بتاريخ النصرانية في الجاهلية والاسلام فليُنتبه اليهِ . ونظيرهُ ما ذكر من تطليق امرئ القيس لامرأته ام جندب حين حكمت لعلقمة الفحل عليهِ عند ما تحاكما اليها في ما قالاهُ من الشعر . وفي هذه القدرة التي كانت للمرأة على تطليق الرجل دليلٌ ناطق بمقدار منزلتها في الجاهلية بحيث كان لها من الحقوق قريبٌ مما كان للرجل تطلقهُ ان انكرت منهُ سوء معاملةٍ لها او تحاملٍ عليها او رأتهُ مهملاً لمكانها مقبلاً على ما تكره منهُ وفي هذا من العدل والانصاف ما لا يخفى على احد

ولم يكن الجمال في المرأة الجاهلية هو وحدهُ المعين لها على الزواج فان كثيرين من الرجال كانوا يؤثرون فيها جمال النفس وكمال الخُلق وشرف النسب وكرم العنصر ودهآء الرأي وذكآء الفهم سوآء كانت مع ذلك

حسنآء او قبيحة . واكثر ما كانوا يلتمسون فيها شهرة الاسم وتطاير الصيت فرب فتاة كانت خاملة الذكر مجهولة المكان متناهية الفقر لا يأتيها راغب ولا يخطبها خاطب ثم اتفق ما نوّه باسمها ونبّه على منزلتها من شعرٍ قيل فيها او في مدح اسرتها فما لبثت حتى اقبل عليها الطلاب من كل قبيلة يبذلون لها من المهر ما اغنى ذويها وأدرَّ عليهم اخلاف الرزق كما رُوي عن المحلّق الكلابي انهُ كان لهُ ثلاث اخوات قد كسدنَ عليهِ وكان مع ذلك فقيراً سيئ الحال فاتفق ان مر ذات يوم بهِ الاعشى الشاعر فبادر وبعث اليهِ بالضيافة واكرمهُ فما كان بعد قليل حتى قال الاعشى شعراً سار وشاع في العرب فما اتت على المحلق سنةٌ حتى زوَّج اخواتهِ الثلاث كل واحدةٍ على مئة ناقة وأيسر وشَرُفَ . وحكى صاحب الاغاني ايضاً ان امرأة جاءت الى الاعشى نفسهِ وقالت لهُ ان لي بناتٍ قد كسدنَ عليَّ فشبِّب بواحدة منهنَّ لعلها ان تنفق . فشبب بواحدةٍ منهنَّ فما شعر الاعشى الا بناقة بُعثت اليهِ فقال ما هذا قالوا زُوّجت فلانة فشبب بالاخرى فاتاهُ مثل ذلك فسأل عنها فقيل زُوجت فما زال يشبب بواحدة فواحدة منهنَّ حتى زُوّجنَ جميعاً

واما الذكآء والفطنة فما من احدٍ يجهل قصة شنّ وما ألزم بهِ نفسهُ من ان لا يتزوج الا بامرأة تضاهيهِ في الدهآء فكان يجوب البلاد في ارتياد طلبتهِ الى ان صادف في بعض اسفارهِ ابا طبقة فسألهُ اسئلةً لم يفطن لمغزاها حتى فسرتها لهُ ابنتهُ طبقة تفسيراً حمل شنّاً على خطبتها وتزوجها . ونظير ذلك ما يحكى عن امرئ القيس من انهُ كان قد اقسم الا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية واربعة واثنين فجعل يخطب النسآء فاذا سألهنَّ عن

هذا قلنَ اربعة عشر فبينا هو يسير في جوف الليل اذا هو برجل يحمل ابنةً لهُ صغيرة فاعجبتهُ فقال لهـا ياجارية ما ثمانية واربعة واثنان فقالت اما ثمانية فاطباءُ الـكلبة واما اربعة فاخلاف الناقة واما اثنان فثديا المرأة فخطبها الى ابيها فزوجهُ اياها واتفق لهُ معها قبل الزواج ما يدل على شدة ذكآئها ووفرة عقلها مما لا انقلهُ لطولهِ . وفي هذه الحكاية دليل ايضاً على ما سبق التنبيه عليهِ من ان بعض الفتيات كنَّ يتزوجنَ في سن حدث وهو قول صاحب الرواية عن الرجل الذي لقيهُ امرؤ القيس انهُ كان يحمل ابنةً لهُ صغيرة ولم يمنعهُ صغرها مع ذلك من تزويجها

القسم الثاني

تقدم في القسم الاول وصف المرأة الجاهلية في حياتها المادية وسأصف في هذا القسم حياتها الادبية وما كان لها من المنزلة والتأثير في أُسرتها وبين قومها واول ما اذكر من ذلك سلطتها على القلوب واستيلآؤها على الافكار حتى كانت مفتتح كل قول ومنصرف كل حديث كالبسملة تُقدَّم بين يدي كل كلام وكالقبلة ينثني اليها وجه كل داعٍ بحيث لم يكن من شعرٍ يُنظَم الا يقف الشاعر في مطلعهِ يحيي المرأة تحيةَ خاشعٍ لها خاضع ويصف في مستهلهِ شوقهُ اليها صفة هائم بمحاسنها مفتون بمحبتها . وما برحوا يعتقدون ذلك فرضاً واجباً عليهم حتى عم ذكر المرأة سائر اقوالهم ومنظوماتهم مهما اختلفت فيها الاحداث النفسانية فصاروا يذكرونها في غير مقامات الصبابة وفي حين لا داعي الى ذكرهـا كفي احيان الغضب مثلاً وطلب الثأر ممـا

لا يبقى للنفس فيهِ محلٌ لرقة القلب ووصف الاشواق . والشواهد على ذلك كثيرة اجتزئ منها بواحد آخذهُ من شعرٍ لذي الاصبع العدواني قالهُ في ابن عمٍ لهُ كان يعاديهِ ويبغيهِ شرًّا فلما هاج بهِ هائج الغيظ قال فيهِ قصيدةً افتتحها بذكر امرأةٍ لهُ اسمها ام هرون اولها

يا من لقلبٍ شديد الهم محزونِ امسى تذكَّرَ رَيَّا امَّ هرونِ

واتبع ذلك بابياتٍ في مثل هذا المعنى وصف فيها الشوق وحرقة البعد ثم وقف فجأةً فقال

ولي ابن عمٍ على ما كان من خُلُقٍ مختلفانِ فأقليهِ ويقليني

فجمع في قصيدة واحدة بين صفة الحب وصفة البغض . وما ابطأت مثل هذه العادة ان تملكت من كل الخواطر حتى صار النسيب وهو وصف المرأة وذكر الاشواق واجباً لا بد منهُ في مطلع كل قصيدة ولا سيما قصائد المدح كما يشاهد في المنقول من شعر العرب . ولذلك لما انكر الحسن بن زيد على ابن المولى ذكرهُ النسآء في شعرهِ وتشبيبهُ بهنَّ وقال لهُ من ليلى هذه التي تصفها في شعرك قال لهُ ابن المولى ما هي الا قوسي هذه سميتها ليلى لاذكرها في شعري لان الشعر لا يحسن الا بالتشبيب . ووقع لابن المولى هذا مثل هذه القصة مع عبد الملك بن مروان لما قال لهُ أخبرني عن ليلى التي تقول فيها

وابكي فلا ليلى بكت من صبابةٍ اليَّ ولا ليلى لذي الودّ تبذلُ

والله لئن كانت حرةً لازوجنك اياها ولئن كانت أمةً لأَبتاعنَّها لك بما بلغت فقال كلا يا أمير المؤمنين ما كنت لاذكر حرمة حرٍ ولا أمتهُ . ما ليلى

الاقوسي هذه سميتها ليلى لأشبب بها فقال لهُ عبد الملك ذلك اظرف لك.
وزاد المتأخرون تمسكاً بهذه العادة حتى اصبح كل شاعر عندهم مضطرًّا ان يتعشق ويصف النسآء في مقدمة شعرهِ ولو لم يكن متيماً بهنَّ . وقد انكر ذلك عليهم المتنبئ فقال

اذا كان مدحٌ فالنسيب المقدمُ　　أكلُّ فصيحٍ قال شعراً متيمُ

وعلى كلٍّ فان لم يكن بدٌّ من النسيب والتغزل في الشعر فكل ذي حظٍّ من الادب يؤثر معي طريقة العرب الاقدمين في التشبيب بالنسآء والشكوى من بعادهنَّ والتشوق لقربهنَّ على هذه الطريقة القذرة التي ولع بها المولدون من التغزل بالغلمان وذكر اوقات الاجتماع بهم وما يُرتكب في خلالها من ضروب المحرمات واصناف الفسق مما اخذوهُ ولا بد عمن خالطهم بعد الجاهلية من الاعاجم. وانظر اي فرق بين نسيب العرب و بين تغزل المولدين فان شعر الاولين كان في الغالب عفيفاً اذا أُنشدتهُ العذرآء في خدرها لم تستحيِ له بخلاف الثاني مما يرجع الفضل فيهِ الى تأثير المرأة على افئدة العرب وحفظها لآدابهم

وقد كانت المرأة عالمة بهذه المنزلة التي لها في القلوب فكانت تستخدمها لا لتبلغ مآربها ولكن لتبعث روح الحمية والاقدام في نفوس قومها وتضرم في افئدة الشبان نار الشجاعة والغيرة وتحملهم بما لها من النفوذ في اهوآئهم على الترفع عن الدنايا واجتناب مساوئ الاخلاق . وقد نُقل عن بعض نسآء بني كنانة لما خشيت من خيل تغير على حيها انها خرجت من خيمتها وكانت حسنآء تامة الحسن وجلست بين صواحب لها ثم دعت وليدةً من

ولا نُدها وقالت ادعي لي فلاناً فدعت لها رجلاً من الحيّ فقالت لهُ ان نفسي تحدثني ان خيلاً تغير على الحيّ فكيف انت ان زوَّجتك نفسي فقال افعل واصنع وجعل يصف نفسهُ فيفرط فقالت لهُ انصرف حتى أرى رأيي واقبلت على صواحباتها فقالت ما عندهُ خير ادعي لي فلاناً فدعت آخر فخاطبتهُ فاجابها بمثل جوابهِ فقالت لهُ انصرف حتى أرى رأيي وقالت لصواحباتها وما عند هـذا خير ايضاً . ثم قالت للوليدة ادعي لي ربيعة بن مكدم فقالت لهُ مثل قولها للرجلين فقال لها انَّ اعجز العجز ان يصف الرجل نفسهُ ولكني ان لقيت أعذرت وحسب المرء غناءً ان يُعذِر فقالت لهُ قد زوَّجتك نفسي فاحضر غداً مجلس الحيّ ليعلموا ذلك فلما كان الغد تزوَّجها وخرج من عندها ودافع الخيل عنها خير دفاع . فلينُظَر كيف ان هذه المرأة لما كانت عارفةً بمقدار السلطة التي لها على النفوس ورأت ان المقام حينئذٍ اصبح حرجاً واحتاج الحي الى من يردّ عنهُ هجمات العدوّ بذلت نفسها جائزةً لمن يحمي حوزتها ولم تبخل بجمالها على اول فارس رأت فيهِ الكفاءة للدفاع وان كانت ربما لم ترَ فيهِ الزوج الذي يهواهُ قلبها

ومن اظهر الدلائل الشاهدة بما كان للمرأة من التأثير في افئدة قومها ما نُقِل عن ابنتي الفند الزِمّاني يوم التحالُق انها لما اشتدت الوغى وحمي القتال وخاف بنو بكر من الفرار عمدت احداهما الى اثوابها فألقتها عنها واقبلت عاريةً مجردةً وجعلت تحضّ الناس وتنشد الاشعار ثم اقتدت بها اختها الاخرى فكشفت عن جسمها ووثبت بين القوم تحرّض الفرسان على القتال وهي تنشد

نحن بنات طارقِ نمشي على النمارقِ ان تُقبلوا نعانقِ او تدبروا نفارقِ

فتحمّس القوم وثارت في رؤسهم حمية الجاهلية ووثبوا يتقاتلون قتالاً منكراً . ولا جرم ان المتأدب بآداب هذا العصر يستفظع فعل هاتين الفتاتين وينسبهما الى القحة والفجور كما اتهمها بذلك بعض الرواة . ولكن من راجع ما ذكرتهُ من معرفة المرأة بسلطتها على الافكار وتأثيرها في النفوس وتدبر اخلاق اهل الجاهلية وصحة آدابهم قضى انهما لم تفعلا ما فعلتا الا لتضرما في صدور المتقاتلين نار الغيرة على حماية الاعراض ودفع العار الذي يلزم من الفرار دون ان يخطر لهما ببال ان ظهورهما بذلك المظهر قد ينكر عليهما او ينسب الى سفاهة وفجور نظراً للعفة التي كانت متصفة بها المرأة في الغالب وحرصها على صيانة النفس من الانقياد الى ما يأمر بهِ داعي الشهوات والاستسلام الى اميال الرجل حتى في ما كان يجري بينهما من مطارحات الحب واحاديث الغرام مما لا يبقى للنفس معهُ قدرة على كبح جماح الهوى والاغضاء عن مطالب القلب . ولذلك كان بعض النسآء لشدة تمسكهنّ باذيال العفة اذا اشتد بهنّ الغرام يؤثرنَ الموت طاهرات على التلطخ باوضار الاثم . وقد عُرفت بذلك خاصةً قبيلة بني عذرة واشتهر عنها حتى كان العرب اذا ارادوا ان يصفوا الحب الطاهر قالوا عنهُ حبّ عذريّ نسبةً الى هذه القبيلة كما يقال عند غيرهم حب افلاطوني

بيد أن المرأة كانت مع هذه الحصانة والنزاهة كثيراً ما تُعرَّض للتهمة وسوء الظن فيحلّ بها البلاء على غير استحقاق . وذلك ان العرب لشدة غيرتهم كانوا اذا اراد احدهم سفراً عمد الى شجرة فعقد غصنين من اغصانها

وهو ما كانوا يسمونهُ بالرتم فان رجع وكان الغصنان على حالهما قال ان امرأتهُ لم تخنهُ والا فقد خانتهُ وعلى ذلك فان عرض المرأة ونقآءهُ كان موكولاً الى رحمة القدر متوقفاً على غصنين ربما هبت الريح ففصلتهما او عمد اليهما بعض من لهُ حاجة لحل عقدهما ومن ثم لا يخلو ان يكون بعض ما نُقل من الابيات التي اتُّهمت فيها المرأة بالخيانة وبذل العرض مسبباً عن مثل ذلك وبالتالي جديراً بالاطراح في مقام الحكم والاستشهاد

ومن النسآء اللواتي اشتهرنَ بالعفة ليلى بنت لكيز الملقبة لذلك بالعفيفة وكانت تامة الحسن كثيرة الادب خطبها كثيرون من اشراف العرب وابنآء الملوك فصانت نفسها تعففاً عنهم وعن ابن عمها البرّاق بن روحان مع رغبتها فيهِ ثم سمع بها ابنٌ لكسرى ملك العجم فبعث من اختطفها وحملها اليهِ وارادها على التزوج بهِ فأبت فجعل يضيّق عليها و يضربها وهي لا تزداد الا منهُ نفرةً وعنهُ تصوناً حتى استنقذها ابن عمها البرّاق وهي القائلة عن ابن كسرى لما جعل يعذبها

يكذب الاعجم لا يقربني ومعي بعض حساسات الحيا

على ان هذه العفة الغالبة لم تكن لتثني بعض النسآء عن حب الفجور وايثار السفاح فان العواهر لا يخلو منهنّ مكان ولا تسلم من آفتهنّ أُمة. غير ان اكثر ما كانت تأتيهنّ العرب اذا وفد الليل وخيّم الظلام حتى اذا هموا بالرجوع ارخوا أُزُرهم لتنجرّ على آثارهم فلا تبين كما ذكر ذلك التبريزي في شرح قول العورآء نبت سُبيع

طيّان طاوي الكشح لا يُرخي لمظلمةٍ إزارَه

ويؤخذ من قول الآخر

الا رجلاً جزاهُ الله خيراً يدلُّ على محصّلةٍ تُبيتُ

ان المرتاد لهنَّ كان اذا لم يهتدِ الى موضع احداهنَّ لا يدَع ان ينشدها مسترشداً اليها . ومعنى المحصّلة هنا المرأة التي تختلف اليها الرجال كما هو الاشبه والاظهر في المراد من هذا البيت لا التي تحصّل تراب المعدن وتميزهُ كما نقل في تفسيرها صاحب كتاب النوادر في اللغة

ولكن اين مكان هؤلآء المومسات من سائر نسآء العرب اللواتي كنَّ لشدة ايثارهنَّ للعفاف لا يقنعنَ لاجلهِ بالترفع عن ملابسة المحرَّمات واقتراف المحظورات بل يطمحنَ الى ما هو اسمى من ذلك همةً واجلَّ فضيلةً ويصنَّ النفس ايضاً عما هو حِلٌ لهنَّ مباح حتى لقد كانت الفتاة المضطرمة شباباً يُعرَض عليها الزوج فتأباهُ لاعتقادها عدم كفآءتها لهُ او تؤثر الدميم الخلقة الشريف النسب المشهور بالشجاعة على الصبيح الوجه الضئيل النسب المعروف بالجبن ثم لا تتزوّج الاول حتى تحملهُ بما استقرَّ لها من السلطة في فؤادهِ على فعل ما يكسبهُ الفخر وترامي الصيت بين قبائل العرب . وانا ناقلٌ في الاستشهاد على ذلك قصةً لا احسب ان التاريخ اورد مثلها عن امةٍ مثل العرب نشأت في القفار لا أدب لها مكتسب الا آدابها النفسانية . وهي ما حكاهُ صاحب الاغاني عن الحارث بن عوف انهُ خطب الى اوس بن حارثة الطآئي ابنتهُ ومعهُ خارجة بن سنان فردهُ اوس لاول وهلة ثم اجابهُ وقال لزوجتهِ ادعي لي فلانة لاكبر بناتهِ فأتتهُ فقال يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب قد جآءني خاطباً وقد

اردت ان ازوّجكِ منهُ فما تقولين . قالت لا تفعل قال ولِمَ قالت لاني امرأة في وجهي رَدّة (اي قبح) وفي خُلقي بعض الشدة ولست بابنة عمهِ فيرعى قرابتي وليس بجارك في البلد فيستحييك ولا آمن ان يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ في ذلك ما فيهِ . قال قومي بارك الله عليكِ . ادعي لي فلانة لابنتهِ الوسطى فدعتها فقال لها مثل قولهِ لاختها فاجابتهُ بمثل جوابها وقالت اني خرقاء . ليست بيدي صناعة ولا آمن ان يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ في ذلك ما تعلم . فقال قومي بارك الله عليكِ . ادعي لي بهية يعني الصغرى فقال لها كما قال لهما فقالت انت وذاك فقال اني قد عرضت ذلك على اختيكِ فأبتاهُ فقالت ولم يذكر لها مقالتيهما لكني والله الجميلة وجهاً الصناع يداً الرفيعة خُلقاً الحسيبة اباً فان طلقني فلا اخلف الله عليهِ بخير . فقال بارك الله عليكِ ثم خرج الى الحارث فقال لهُ قد زوّجتك يا حارث بهية بنت اوس . قال قد قبلت . فأمر امها ان تهيئها وتصلح من شأنها ثم أمر ببيت فضُرب لهُ وانزلهُ اياهُ . قال خارجة بن سنان فلما هيئت العروس بُعث بها اليهِ فلما اقبلت عليهِ لبث هنيهةً ثم خرج اليّ فقلت ابلغت شأنك قال لا قلت وكيف ذلك قال لما دنوت منها قالت مهْ أعند ابي واخوتي هذا والله ما لا يكون . قال فامر بالرحلة فارتحلنا وسرنا ما شاء الله ثم قال لي تقدم فتقدمت وعدل بها عن الطريق وما ابث ان لحق بي فقلت أكان ما تحب قال لا والله قلت ولِمَ قال قالت لي أكما يُفعل بالامة الجليب او الاخيذة السبيّ . لا حتى تنحر الجُزُر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يُعمل لمثلي . قلت اني لأرى همةً وعقلاً وارجو ان تكون المرأة منجبةً ان

شآء الله . فرحلنا حتى جئنا بلادنا فاحضر الابل والغنم ثم دخل عليها وخرج اليَّ فقلت ابلغت ما تريد . قال لا . قلت و لِمَ . قال دخلت أُريدها وقالت لها قد احضرنا من المال ما قد ترينَ . قالت لقد ذكرتَ لي من الشرف ما لا اراه فيك . قلت وكيف . قالت أتفرُغ لزواج النسآء والعرب تقتل بعضها وذلك في ايام حرب عبس وذبيان . قلت فيكون ماذا . قالت اخرج الى هؤلآء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع الى اهلاك فلن يفوتك . فقلت والله اني لأَرى همة وعقلاً ولقد قالت قولاً فاخرج بنا فخرجنا حتى اتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح واحتملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير وانصرفنا باجمل الذكر . انتهى ببعض تصرف . فهل سُمع قط بمثل هذه العفة الشريفة والعقل الراجح يُعرض على الفتيات في شرخ صباهنَّ سيدٌ من سادات العرب فتأباهُ بعضهنَّ بدعوى انها لا تصلح لهُ وترضاهُ احداهنَّ وبدلاً من ان تتمتع بما أُحلَّ لها تصون عنهُ النفس تعففاً انفةَ من ان تشتغل بلذتها بينما الناس يقتل بعضهم بعضاً . لا غرو ان مثل هذه العفة في مثل تلك الهمة لغريبة في مثل تلك الفتيات اللواتي لم يصحبنَ الا الوحش في الفلوات

وفي هذا الشاهد شواهد أخرجآءت مثبتةً لبعض ما تقدم ذكرهُ من موضوعات هذا البحث انبه عليها تعزيزاً للدعوى فمنها شاهد بان الفتيات كنَّ لا يُغصبنَ على التزوج بمن لا يردنهُ بل تُعرض عليهنَّ في الغالب الازواج فيخترنَ من يشأنَ ويرفضنَ من يشأنَ . ومنها سلطة المرأة على الرجل وتأثيرها في افكارهِ واعمالهِ بحيث كان يأتمر بامرها ولا يعصي لها نهياً . ومنها عناية بعض الأُسر الكريمة بتعليم فتياتهنَّ بعض الصنائع

اليدوية واعتقاد هؤلآء الفتيات تعلمهنَّ لها من افضل واجبات المرأة الكاملة واهمّ الضروريات المعينة على الزواج خلافاً لما تقدم من أنفة اكثر النسآء من الامتهان وتجافيهنَّ عن الصناعات للامآء والحرائر غير العريقات في الشرف

وقد كانت النسآء لهذه العفة التي وصفت حريصاتٍ على سمعتهنَّ يغرنَ عليها غيرتهنَّ على شرف أُسرتهنَّ . فكنَّ يرضين بكل شيء خلا قبح الاحدوثة ويؤثرنَ الموت على فعل ما يغضُّ من ذكر قومهنَّ او يلحق بهنَّ العار . وقد جآء عن فاطمة بنت الخرشب وهي احدى النسآء المنجبات وكان يقال لبنيها الكَملة انهُ لما ظفر بها حمل بن بدر راكبةً وقادها بجملها قالت لهُ أَيْ رجل هل ضلَّ حلمك والله لئن اخذتني فصارت بي وبك هذه الاكمة التي امامنا ورآءَنا لا يكون بينك وبين بني زياد صلحٌ ابداً لان الناس يقولون في هذه الحال ما شآءوهُ وحسبك من شرّ سماعهُ . قال اني اذهب بكِ حتى ترعي عليَّ ابلي فلما تقينت انهُ ذاهب بها رمت بنفسها على رأسها من البعير فماتت خوفاً ان يلحقها او يلحق بنيها عارٌ فيها

لا جرم ان اجتماع مثل هذه الخصال الشريفة في المرأة الجاهلية كان نتيجة حسن تأديب والديها لها وأخصّ بفضل هذه التربية المرأة نفسها وان كان للرجل فيها حظ ونصيب فان الوالدة كانت للأَدب الذي نشأَت عليهِ تحرص على تهذيب ابنتها بمثل ما هذبت بهِ نفسها وتُعنى ببث روح العفة وعزة النفس في فؤادها حتى اذا ترعرعت خرجت نظيرها لا همة لها الاّ كرم الاخلاق وطيب الخصال ولا رغبة الا في نقآء العرض وحسن الذكر كما يشهد بذلك ما ذكر قريباً عن بنات اوس الطآئي وتصرف الصغرى

منهنَّ خاصةً مع زوجها . وقد نقل الرواة وصيةً اوصت بها امرأة عوف بن محلم الشيباني ابنتها لما خطبها عمرو بن حجر ملك اليمن يُعلم منها مبلغ التربية التي كانت تربي بها النسآء فتياتهنَّ في الجاهلية ومنهج التأديب الذي كنَّ ينهجنهُ في تعليمهنَّ كيف يستدبرنَ في المنزل ومع الزوج اذا دُفعنَ الى الزواج ومنها يُستدل على مقدار الحكمة التي كانت متصفةً بها الانثى في الجاهلية ووفرة العقل الذي كانت تستضيء برأيهِ في كل امرٍ تباشرهُ او خطةٍ تجري عليها . وقد نُقل عنها من الاقوال الآخذة بمجامع السداد المستولية على لب الصواب ما يشف عما كان يتقد فيها من الذكآء والنباهة . ومن طالع اقوال هند بنت الخس احدى حكيمات العرب الاربع وما كان يدور بينها وبين ابيها من الاحاديث تيقن صحة ما ذهبت اليهِ واستدل بهذه الآثار على رفعة المكانة التي بلغتها المرأة في تلك القفار

ومع كل ذلك لم تكن الانثى تكتفي بهذه الفضائل بل كانت تطمح الى كثير من مزايا الرجل فتشاركهُ فيها كالكرم والشجاعة والخوض في معامع الحروب والحرص على ادراك الثأر مما هو خاصٌّ بالرجل مشهور بهِ وحدهُ

اما الكرم فانها كانت لا تفرغ يومها اجمع من استقبال الضيوف وبذل القرى لهم ولو لم يحضرها في ذلك زوجها . ومن المشهرات بالجود والسخآء سفانة بنت حاتم الطآئي كان ابوها يعطيها القطعة من الابل بعد القطعة فتهبها وتعطيها للناس فقال لها حاتم يا بنية ان القرينين اذا اجتمعا في المال اتلفاهُ فاما ان اعطي وتمسكي او امسك وتعطي فانهُ لا يبقى على هذا شيءٌ فقالت لا امسك ابداً قال وانا لا امسك ابداً فقاسمها مالهُ وتباينا . ولما

كان الكرم داعياً الى الشجاعة كانت المرأة لا ترهب من شهود القتال ولا تخشى الخوض في ساحات الوغى ولست اعني بذلك انها كانت تعتقل الرمح وتتقلد السيف وتبرز لمطاعنة الرجال . بل انهـا كانت تخرج لتحرض فرسان قومها على الثبات في مدافعة العدو وتؤجج في قلوبهم نار الحمية بمـا تهيجهم بهِ من الاقوال الحماسية والمظاهر التي تلتهب لهـا الصدور غيرةً كما ذكرت عن ابنتي الفند الزماني ومثلما يشاهد اليوم في بدويات العصر . ولا يزال الى الساعة صدى القفر يردّد قول الزرقاء ألا ان خضاب الرجال الدمآء وخضاب النسآء الحناء . وقد نقل ابن عبد ربه في كتابهِ العقد الفريد جملةً من مثل هذه الاقوال والخطب الحماسية المحفوظة عن اشهر النسآء فلتطالع هنالك

ولقائلٍ ان يقول ان غير ذلك كان اولى بالمرأة وانها لو انصرفت عن تهييج القوم على سفك دمآء بعضهم الى معالجة الجريح منهم واعانة الملهوف لكان اشبه بها وازين لها فاجيب ان المرأة انما كانت تفعل ما تفعلهُ لا رغبةً في اراقة الدمآء ولكن لعلمها ان قومهـا اذا صدقوا القتال واحسنوا الدفاع حموا بذلك عرضها من ان تخلص اليهِ يد الغالب فتدنسهُ بمـا يكون سبة الابد وعار الدهر فضلاً عن ان بعض النسآء كنَّ اذا شهدنَ الحرب ورأينَ الصريع من قومهنَّ يبادرنَ اليهِ فيعصبنَ جراحهُ ويعالجنهُ بما استطعنَ كما حكي عن نسآء بني بكر يوم التحالق انهنَّ تقلدنَ كل واحدةٍ اداوةً من مآء في يدٍ فكنَّ اذا مررنَ بصريع من قومهنَّ سقينهُ المـآء ونعشنهُ . ولكنهنَّ في ضد ذلك اخذنَ هراوةً في اليد الاخرى وكنَّ اذا مررن على رجلٍ من الاعدآء ضربنهُ بها واجهزنَ عليهِ

واما الحرص على ادراك الثأر فقد يظهر ان المرأة كانت لا ينام لها وتر ولا تغفل عن طلب الانتقام وربما كانت تتشدد في هذا الطلب اكثر من الرجل وتنبهُ اليه اذا رأتهُ مهملاً لهُ مثلما ذكر عن ريحانة بنت معدي كرب انها قالت لدريد بن الصمة بعد حولٍ من مقتل اخيهِ يا بنيَّ ان كنت عجزت عن طلب الثأر باخيك فاستعن بخالك وعشيرتهِ . فانف من ذلك وحلف لا يكتحل ولا يدَّهن ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأرهُ . وما لبث حتى جاءَها بقاتل اخيهِ وقتلهُ بفنائها وقال هل بلغتِ ما في نفسكِ قالت نعم متِّعت بك . ولست انكر ان مثل هذا الحرص على سفك الدم تشفياً وانتقاماً مما لا تمدح بهِ المرأة الجاهلية وان كان لها بعض العذر فيهِ لكون القتيل قريباً لها من ذوي رحمها وممن يُعدُّ الطلب بثأرهِ والحقد على قاتلهِ طبيعةً لكل نفس فان مثل هذه الصفة هي بالرجال أجدر لا سيما وانهم كانوا يحسبون القعود عن طلب الثأر اقراراً بالعجز والجبن وهو ما كانوا يأنفون منهُ . ومثل ذلك انكر بعض الناس من المرأة سجيتي الكرم والشجاعة وآثروا لها في ضدهما البخل والجبن حتى كانوا اذا مدحوا الفاضلة من النسآء مدحوها بهما وعدوهما فخراً وزيناً لها كما قال الطغرآئي في لاميتهِ

قد زاد طيبَ احاديث الكرام بها ما بالكرائم من جبنٍ ومن بخلِ

وانما ذهبوا هذا المذهب لاعتقادهم ان المرأة اذا كانت كريمة تجود بمالها لا تبطئُ ان تجود بعرضها ايضاً واذا كانت شُجاعةً قد تعودت مشاهدة الابطال ولقآء الرجال لا تلبث ان تألفهم فلا تستتر منهم وتعرّض نفسها

للاتهام بهِ . قال الصفدي في شرح البيت المتقدم « الجبن والبخل خصلتان محمودتان في النسآء مذمومتان في الرجال لان المرأة اذا كان فيها شجاعة ربما كرهت بعلها فأوقعت بهِ فعلاً أدّى الى هلاكهِ او تمكنت من الخروج من مكانها على ما تراهُ لانهُ لا عقل لها يمنعها مما تحاولهُ وانما يصدُّها عما يقتضيهِ عقلها الجبن الذي عندها والخور فاذا لم يكن لها مانع من الجبن اقدمت على كل قبيح وتعاطت ما تختارهُ اقداماً منها على ما يأمرها بهِ الشيطان . واذا كانت المرأة سمحةً جادت بما في بيتها فأضرَّ ذلك بمال زوجها ومتى عُلم منها الجود بما يُطلب منها ربما حصل الطمع فيها بامرٍ آخر ورآء ذلك » ولعل مثل هذه الاعتبارات تصدق في غير المرأة الجاهلية فقد سبق في عفة هذه وصحة آدابها وأَصالة رأيها ما يغني عن التكرار ويزيل كل شك وارتياب

ومما شاركت الرجل فيهِ ايضاً وساوتهُ بهِ اذا لم اقل ابرَّت عليهِ في بعض اقسامهِ قول الشعر فانهُ كان ايسر فضائلها واهون شيء عليها ترسل الكلام فيهِ ارسالاً فيأتي محكماً صادق الوصف مستولياً على اقصى آماد الفصاحة قد جمع بين مثل رشاقة قدها وسحر مقلتها واخذ من صحة آدابها باجزل قسم ومن رقة فؤادها باوفى نصيب . ولذلك كانت اكثر ما تجيد في المراثي خاصةً كما يُرى في شعر الخنسآء في اخويها صخر ومعاوية . ولهذه السجية المطبوعة على النظم كان لا يخلو منهُ قولٌ لها جدًّا كان ام هزلاً فاذا انامت غلامها او ارقصت فتاتها او فاخرت جارتها او مدحت قومها او بكت فقيدها ذكرت ذلك كلهُ بمنظوم ربما كان الغالب عليهِ الرجز . وقد كان العرب يعرفون لها هذه المنزلة في الشعر حتى ان النابغة الذبياني وكان يجلس

لشعرآء العرب في عكاظ على كرسي ينشدونهُ فيفضل من يرى تفضيلهُ لما انشدتهُ الخنسآء في بعض المواسم أُعجب بشعرها وقال لها لولا ان هذا الاعمى انشدني قبلكِ يعني الاعشى لفضلتكِ على شعرآء هذا الموسم . وقد نقل التاريخ في ما عداها اسمآء شواعر كثيرات ممن حفظ الرواة شعرهنَّ تضمن منهُ الجزء الاول وحدهُ من ديوان رياض الادب المطبوع في المطبعة الكاثوليكية في بيروت شعر نحو احدى وستين شاعرة في الرثآء فقط فليطالعهُ من يشآء . وكفى دليلاً على رفعة مكانة المرأة في الفصاحة وجلالة قدرها في النظم ان ابا تمام ومعلوم من هو لما أَلَّف كتابهُ المشهور بالحماسة الذي انتقاهُ من اجود شعر العرب لم يجد بدًّا من تضمينهِ اقوال كثيراتٍ من النسآء الشواعر . بل ان امرأ القيس نفسهُ لما اختلف هو وعلقمة الفحل في ايهما اشعر لم يجد من يحاكمهُ اليهِ الا امرأةً كان قد تزوَّجها من قبيلة طيئ فانشدها شعراً وانشدها علقمة شعراً فحكمت لعلقمة عليهِ لبيت وصف فيهِ امرؤُ القيس فرساً فقصَّر . وحسبي بهذا الشاهد فلا اتخطاهُ الى غيرهِ لتعريفهِ بالقدرة الراجحة التي كانت للمرأة على قرض الشعر او نقدهِ حتى كان يتقاضى اليها فيهِ فحول الشعرآء من الرجال

ولا ريب ان الفرزدق نفسهُ لو كان قد ادركها في الجاهلية وسُئل عنها لما اجترأَ ان يجيب بمثل ما اجاب بهِ حين قيل لهُ ان فلانة تقول الشعر فقال « اذا صاحت الدجاجة صياح الديك فلتذبح » فان هذه الدجاجة التي لم تكن تصلح عندهُ الا للذبح كانت هي نفسها تُصلح احياناً المديك صياحهُ كما نُقل عن جواري المدينة انهنَّ اصلحنَ للنابغة الذبياني ثلاثة ابيات من

شعرهِ كان قد اقوى فيها . قال المرزباني في الموشح فقدم المدينة فعيب عليهِ ذلك وأسمعوهُ اياهُ في غناء واهل القرى ألطف من اهل البدو وكانوا يكتّبون جواريهم عند اهل الكتاب . وفي هذا القول شاهد آخر جاء اتفاقاً من غير عمد على ان بعض النسآء في الجاهلية كنَّ ايضاً يحسنَّ الكتابة والقرآءة فضلاً عما سبق من فضآئلهنَّ . وهذا ولا جرم من اغرب ما تُمتَدَح بهِ الانثى في تلك الاعصار ومن افضل ما تُعرف بهِ حياتها الادبية في تلك الاقطار . وليكن آخر ما اذكرهُ من اوصافها وقوفاً عند الحد الذي رسمتهُ لنفسي في هذا المختصر ولو اردت ان استقصي وابلغ الغاية في الوصف للزمني مجلد كامل اذ كان لا يكشف الكشف الوافي عن هذا البحث الا سرد القصص والروايات وهي ما يضيق عنها المقام

ولا محالة ان الناظر في هذه النبذة اليسيرة المتصف بالنزاهة والتجرد عن الهوى يقف وقفة الدهش والاستغراب عند ما يتأمل رفعة المنزلة التي بلغتها المرأة في الجاهلية ويرى انها قد خُلِقت فيها لغير قضآء الشهوة وخدمة اللذة وبالتالي انها لم تكن لعبة الرجل ولا نعلاً لهُ يلبسها متى شآء كما ذكر فيها بعض واصفيها من المخضرمين . ومع ذلك فقد وجدت كثيرين يبخسونها حقها او يساوون بينها وبين غيرها من الاناث ويجمعونهما تحت حكم واحد جهلاً لا محالة بالصحيح وقياساً لاحداهما على الاخرى . وقد ذكرت في الاولى منهما ما وسعني ذكرهُ مما يظهر بهِ الفرق بين المرأتين ويتضح الحق لذي عينين

فاياكَ واسمَ العامرية انني اغار عليها من فم المتكلمِ